

النزوح الجماعي لليهود عن العراق، 1948 - 1951¹

The Jewish Exodus from Iraq, 1948 – 1951

Moshe Gat

London: Frank Cass, 1997.

209 pages. \$52.25.

يرى موشيه غات أن العراق كان "فردوساً" للجالية اليهودية منذ العشرينات حتى أواسط الثلاثينات من القرن العشرين. وقد تسارعت عملية العصرية والاندماج الاجتماعي التي كانت بدأت مع مطلع القرن. ونجح يهود العراق في التجارة والفنون والقانون والحكم. وعلى العكس من يهود أوروبا، لم يكن عليهم أن يتوجسوا خشيةً جرأً اللاسامية المتزايدة حولهم. لكن مع نهاية سنة 1951، كانت الأكثرية الساحقة من اليهود، أي 120.000 يهودي، قد نُقلت من العراق إلى إسرائيل. واستناداً إلى مراجع بريطانية وأميركية وإسرائيلية يتساءل غات كيف أمكن، بهذه السرعة، اقتلاع جالية مضي على وجودها في العراق ثلاثة آلاف عام.

ونظراً إلى الدراما الهائلة المتضمنة في هذا الموضوع، فإن الأسلوب المتناقل الذي اعتمده غات بدا غير ملائم نسبياً. فهو يبدأ بوضع مخطط لتطور اليهود العراقيين منذ سنوات أفول الإمبراطورية العثمانية، حين كان السكان يتمتعون بقدر كبير من الحكم الذاتي بموجب نظام الملل، وصولاً إلى قيام الدولة العراقية الحديثة في سنة 1920 وما بعدها، حين جرى التحوّل نحو الاندماج الاجتماعي. ومع أن التعاطف مع التطلعات الصهيونية يظهر في النصّ كله، فإن غات لا يقلل من أهمية عداء اليهود العراقيين للصهيونية. وهو يستنتج أنهم، قبل سنة 1930، كانوا يعتبرون أنفسهم "يهوداً بالدين وعرباً بالجنسية" (ص 13). وقد ضعف هذا الشعور بالهوية نتيجة انتشار العداء لبريطانيا في العراق، وحدث المذبحة الوحشية للأشوريين على أيدي القوات العسكرية العراقية في سنة 1933 - الأمر الذي غدّى الشعور بالضعف لدى جميع الأقليات، فضلاً عن الأزمة المتعاضمة في فلسطين، التي أدت إلى هيجانات ضد

¹ المصدر *Journal of Palestine Studies*, Vol. XXVIII, No. 4, Summer 1998, pp. 109 – 111.

اليهود. وقد وقع أول أعمال العنف الكبرى ضد اليهود في حزيران/يونيو 1941، بعد سقوط النظام القومي العربي القصير العمر لرشيد عالي الكيلاني. وأدت هذه المجزرة المعروفة باسم "الفرهود"، إلى مقتل 180 شخصاً وإصابة مئات الجرحى. ومع أن مثل هذا الحدث ربما بدا عابراً في أوروبا الشرقية، فإن كونه غير مألوف في العراق هو بالضبط ما صعق الجالية اليهودية هناك. وعلى الرغم من ذلك، يضيف غات، فإن اليهود استعادوا عافيتهم سريعاً من آثار "الفرهود". إذ بدأ اليهود الشباب، بصورة خاصة، ينخرطون في العمل السياسي، وكانت الشيوعية، لا الصهيونية، هي التي جذبت معظمهم. وينقل غات عن مبعوث صهيوني قديم في بغداد قوله إن الصهيونية اعتُبرت غير مقبولة لدى "أكثرية واسعة" من الجالية اليهودية (ص 28).

وكان قيام دولة إسرائيل في أيار/مايو 1948 تحولاً أساسياً آخر بالنسبة إلى مصائر اليهود العراقيين. فقد بدا أن السلطات العراقية، غير القادرة على مواجهة إسرائيل بفعالية على أرض المعركة، قرّرت أن اضطهاد السكان اليهود بديل مقبول. وفي رأي غات أن شنق رجل الأعمال المليونير شفيق عدس في أواخر سنة 1948، بعد محاكمة شكلية اتهمته بإمداد إسرائيل بالسلاح، أجبر الجالية اليهودية كلها على مواجهة خيار كان في السابق مقصوراً على أعداد قليلة من أفرادها: النزوح الجماعي. ويعترف غات بأن الهيجان الذي ساد أوساط الجالية اليهودية خدّم أهداف عملاء الموساد في تشكيل مجموعات صهيونية سرية في العراق. وفي آذار/مارس 1950، أقرّ العراق قانون استرداد الجنسية، الذي سحبت بموجبه المواطنة العراقية من أي يهودي اختار أن يغادر العراق. ونظراً إلى الموقف العراقي المعادي تجاه إسرائيل، يتساءل غات: لماذا سمحت بغداد لعدد كبير من سكانها [اليهود] بأن يستقر هناك [في إسرائيل]؟ وهو يستنتج أن العراقيين اعتقدوا أنهم يتخلّصون بذلك من "عنصر متطرف ومثير للشغب". وهذا بدوره سيضعف الحزب الشيوعي (الذي ارتبط تعريفه بالصهيونية) (ص 76). وهكذا، تغلبت المصالح الوطنية العراقية على القومية العربية.

يقدم غات في مناقشته المطوّلة لعملية "عزرا ونحميا"، وهو الاسم الرمزي للجسر الجوي الذي نقل اليهود العراقيين إلى إسرائيل، تفصيلات قيّمة عن السياسة الإسرائيلية تجاه المهاجرين، حتى إذا كانت السكتات التحليلية في روايته صاعقة أحياناً. فعلى سبيل المثال، لم يعلّق غات على ملاحظة أدلى بها أحد كبار المسؤولين في الوكالة اليهودية، ومفادها أن اليهود الأوروبيون شكّلوا "مادة بشرية أفضل" من

أولئك القادمين من بلاد عربية. ويوضح غات أن اليهود العراقيين لم يكونوا الأفضلية الأولى بالنسبة إلى إسرائيل، علماً بأنها حاولت التلاعب بشأن وضعهم. ومع أن اليهود العراقيين أصبحوا بلا دولة نتيجة قانون سحب الجنسية، ثم خسروا المزيد نتيجة قانون تجميد ممتلكاتهم بعد ذلك بعام، فإنهم ظلوا أدنى مرتبة من يهود بولندا ورومانيا في ترتيب نظام الهجرة.

يتناول الفصل الأخير من الكتاب أكثر الجوانب المثيرة للجدل في موضوع النزوح الجماعي: التفجيرات ضد المؤسسات ومراكز الأعمال اليهودية في سنتيني 1950 و1951، وارتباط تلك التفجيرات بالهجرة. ويورد غات أسماء عدد من الكتّاب الذين استنتجوا أن إسرائيل هي التي كانت وراء هذه التفجيرات لنشر الذعر بين اليهود كي يرحلوا. لكن بالنسبة إلى غات "فمن المستبعد أن يكون هناك أبداً" إجابة محددة عن قضية المسؤولية (ص 187). لكنه يبرئ إسرائيل من تلك المسؤولية في واحدة من المفارقات التي تشوّه النصّ. ففي رأيه أن المجموعات السرية الصهيونية لم تكن لتتبنّى مثل هذه الاستراتيجية الخطرة، بينما كانت الشرطة العراقية تطاردها (ص 186). ومع ذلك فهو لم يضع في اعتباره إمكان تغاضي بعض القادة العراقيين لقاء أموال توضع في جيوبهم. كما أنه لم يأخذ في الاعتبار اعتراف يغال ألون، في معرض تعليقه على "قضية لافون" في سنة 1954، بأن مثل هذه العمليات - حملات التفجير - "جُرب أول مرة في العراق".

وفي مقالة نشرتها "هآرتس" مؤخراً تلوم فيها إسرائيل على معاملتها لليهود العراقيين، اقتبس يهودا شينهاف عبارات من رسالة مضطربة وجّهها أحد المسؤولين الإسرائيليين إلى وزير الخارجية، موشيه شاريت، عقب شنق ناشطين صهيونيين في بغداد في سنة 1952. وقد جاء في تلك الرسالة، التي يذكرها غات أيضاً، أن اليهود العراقيين المقيمين بمعسكرات انتقال متواضعة في إسرائيل، يصفون حادثي الشنق بأنهما "انتقام الله من الحركة التي أتت بنا إلى هنا". لعلها كلمات قاسية، لكنها تشير إلى شيء يرفض غات مواجهته: الغضب الناجم عن إذلال جالية كان لها كبرياؤها ذات يوم. وغات يتجنّب خوض فحص جدي للعلاقة بين اليهود العراقيين والفلسطينيين الذين طردوا من أراضيهم. وكما يشير شينهاف في مقالته، فإن الممتلكات المجمّدة لليهود العراقيين، وُضعت في مقابل مطالبة الفلسطينيين بالتعويض. علاوة على ذلك، يكشف شينهاف عن أن إسرائيل "أمّمت" اليهود العراقيين،

حين عرّفت بنمط استعادي أن ممتلكاتهم هي "ممتلكات إسرائيل". وكان يجب لمثل هذا الإجراء، في الحد الأدنى، أن يثير المزيد من الفحص بشأن ما سماه بن - غوريون "الصهيونية الوحشية"، وهو مصطلح غائب تماماً عن كتاب غات.

بن كوهين

صحافي ومنتج تلفزيوني

مقيم بلندن

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
<http://www.palestine-studies.org/ar/mdf>